ثالثاً : تعليقات ومناقشات

ديوان الخنساء

بشـــرح أبي العبـــاس ثعلـــب

ليس له

الدكتور
محمد جبار المعيبد
كلية التربية / جامعة البصرة

اطلعت بأَخَرَة على هذا الديوان المطبوع بعمّان سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وألف (١٩٨٨) للميلاد ، بتحقيق الدكتور أنور أبو سويلم من جامعة مؤتة ، وما أعرفه عن ديوان الخنساء أنه لم يطبع ، قبل هذه الطبعة ، طبعاً علمياً موثقاً ، لذلك فإن المعنيين بأدبنا العربي القديم يجدون ضالتهم في هذه الطبعة التي اتسمت بالإخراج الجميل وضبط أشعارها فضلاً عن فهارسها العامة العشرة الملحقة بالديوان .

وأبو العباس ثعلب ، أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١هـ ، من علماء اللغة والنحو الكبار ، نسبت إليه شروح على دواوين لشعراء جاهليين وإسلاميين طبعت ، منهم : الأعشى الكبير وزهير بن أبي سلمى وابن الدمينة ومزرد بن ضرار وذو الرمة ، وديوان الخنساء الذي بين أيدينا .

أقول : المعنيون بأدبنا العربي القديم يسرون كثيراً إذا ما طبع ديوان لشاعر عربي قد جمعت أشعاره من بطون كتب التراث ، بعد أن طالته يد الزمان ومحت أثره ، فكيف إذا طبع ديوان عن مخطوطة برواية ثعلب وشرحه ؟ .

بدأت أقرأ هذا الديوان أول الأمر قراءة مستفيد ، لعلي أجد فيه ما أزيد علمي ومعرفتي بالخنساء وشارح شعرها ، فوجدت شيئاً كثيراً من هذا الذي قصدت . وكلما ازددت ألفة مع الديوان ازددت شكّاً وريبة ، الألفة مع شعر الخنساء ، والريبة والشك بشارح شعرها .

وأعدت قراءة الديوان مرة ثانية قراءة ناقدٍ أحاط نفسه بمراجعه ومصادره . وإذا بالشك والريبة يجدان لهما في نفسي أساسا مكيناً آثرت ألا أنفرد بهما بل أشارك الآخرين ، ومنهم محقق الديوان الفاضل .

حاولت ، أولاً ، أن أعثر على ذكر لأبي العباس ثعلب في هذا الديوان فلم أجده. وثعلب في كتبه ، ولا سيما " المجالس " ، يتكرر اسمه وكنيته فيها على عادة الأقدمين . أما في هذا الكتاب فلم أعثر له على أي نمط من أنماط الذكر .

الخطوة هذه قادتني ، ثانياً ، إلى معرفة شيوخ ثعلب وما نقله عنهم في هذا الديوان من شروح وروايات . وشيوخ ثعلب ، كما يعرف الدارسون ، كثر نعرفهم لا من كتبه فقط وإنما من كتب اللغة والمعجمات وكتب التراجم . ومن هؤلاء : أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي وأبو الفضل الرياشي وأبو الحسن الأثرم وعمر بن شبة البصري وعمرو بن أبي عمرو الشيباني ومحمد بن حبيب . وأبرز شيوخه وأبعدهم أثراً فيه : أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١هـ[1] .

هؤلاء الشيوخ لم يرد لهم ذكر في هذا الديوان ، باستثناء ابن الأعرابي . فإن ذكره لم يرد على النمط الذي نجده في كتبه وكتب تلاميذه : قال أبو العباس ثعلب : حدثنا ابن الأعرابي ، وإنما على نمط : وروى ابن الأعرابي (ص٦٠) وقال ابن الأعرابي (ص٦٥) إلا في موضع واحد (ص١٨٢) قال فيه : (سمعت ابن الأعرابي وأبا عمرو يقولان .....) .

نعم ، المؤلف يروي هنا مباشرة عن شيخه ابن الأعرابي ، ولكن من هو شيخه الآخر ، أبو عمرو ؟ . ما أعرفه ويعرفه الدارسون أن هذه كنية لعالمين لغويين معروفين ، هما : أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ) وأبو عمرو الشيباني (المتوفي نحو ٢٠٦هـ) . هاتان الكنيتان قد تشتبهان على القارئ أحياناً ولكن الرواية عنهما ومتابعة النصوص قد توصلنا إلى تحديد صاحبها . وأبو عمرو بن العلاء ، بلا شك ، ليس هو المقصود بهذه الكنية ، لأننا لا نكاد نجد عالماً من علماء العربية أخذ عن ابن العلاء وابن الأعرابي معاً ، بل لا يصلح ابن العلاء أن يكون شيخاً لابن الأعرابي لأن هذا كان في الرابعة من عمره عند وفاة ابن العلاء[٢] . من هنا نقول : إن هذه الكنية لأبي عمرو الشيباني .

وهنا نتساءل : وهل عدّ أحد أبا عمرو الشيباني شيخاً من شيوخ ثعلب ؟ نقول : لا ، ويقول محقق الديوان الفاضل : نعم ، قالها (ص١١) حينما تحدث عن رواة ديوان الخنساء ، ومنهم أبو عمرو الشيباني ، قال (وروى عنه الأصمعي وثعلب) . وهذا لا يصح لان ثعلباً أرّخ لولادته بدقة متناهية ، قال : (رأيت المأمون لما قدم من خراسان ، وذلك سنة أربع ومائتين ... قال : فحملني أبي على يده ..... وقال لي : هذا المأمون ، وهذه سنة أربع ، فحفظت ذلك عنه إلى الساعة . وكانت سنّي يومئذ أربع سنين)[٣] . ونقل الخطيب البغدادي[٤] : (طلبت العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين) . هذا الذي نقلناه يؤيد ما ذهبنا إليه من أن ثعلباً لم يرو عن أبي عمرو الشيباني .

عند هذا الحد صار الشك عندي يقيناً أن شارح الديوان ليس ثعلباً ، وإنما هو آخر سمع أبا عمرو الشيباني . ولكي أخلد إلى اليقين تماماً أبقيت الشك في داخلي ورحت أبحث عن أدلة أخرى تقوّي يقيني . فكان من هذه الأدلة :

أ ـ أن أبا العباس ثعلباً يذكر في كتبه ، ولا سيما المجالس ، أعراباً رواة عاصروه أو عاصروا شيوخه . ومن هؤلاء الأعراب المذكورين في المجالس : (أبو العميثل وأبو مجيب الربعي وأبو الخطاب البهدلي وأبو داود الأعرابي وأبو سليمان الأعرابي وأبو الجراح وغيرهم) . هؤلاء الأعراب لا نجد واحداً منهم يُذكر اسمه في شرح ديوان الخنساء ، وإنما نجد أعراباً آخرين غيرهم تتكرر أسماؤهم في هذا الكتاب ، ومنهم : (زائدة وشجاع السلمي وعرام بن الإصبغ ومبتكر الثعلبي وغيرهم) . وهؤلاء الأعراب ، باستثناء عرّام بن الإصبغ ، مجهولون للمحقق الفاضل ، كما تشير هوامشه التي وضعها للتعريف بهم .

ب ـ تابعت كتب ثعلب في ما يتعلق بشعر الخنساء ، فوجدته يذكرها في كتابه (قواعد الشعر) فقط ، ولا يذكرها في (المجالس) و (الفصيح) . ذكرها في الأول في ثلاثة مواضع ذكراً يخالف ما نسب إليه في شرح هذا الديوان ، وهي :

١ ـ أن قصيدة الخنساء اللامية التي تحمل الرقم (٤) ص٧٨ ، صدّرها شارح الديوان بقوله : (وقالت لمعاوية أخيها ، وقتلته بنو مرة على غدير قلهي ..) ، ولكن ثعلباً في كتابه (قواعد الشعر ٩١) يقول عند ذكره بيتاً من أبيات هذه القصيدة : (وقالت الخنساء ترثي صخراً) ، وليس معاوية .

٢ ـ يذكر شارح الديوان (ص٣٨٦) بيتاً شهيراً للخنساء بهذه الرواية :

أغَرُّ أبْلَجُ تأتَمّ الهُدَاةُ بِهِ

كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نَارُ

من غير أن يذكر الرواية الأخرى التي عليها طبعات الديوان وكتب اللغة والأدب ، بينما يذكر ثعلب في كتابه المذكور (ص٧٧) هذه الرواية ، وهي :

وإن صخـــراً لَتَأتمّ الهـــُدَاةُ بـــهِ

كأنـــّهُ علَـــمٌ فـــي رأسـِه نَـارُ

ذكره عند حديثه عن (الأبيات الغرّ) .

٣ ـ ذكر شارح الديوان (ص١٥٤) بيتَ الخنساء التالي بهذه الرواية ، وهي :

فالحمـدُ خلّتـُه والجودُ عِلّتـــُه

والصـدقُ حَوزتُـه إن قِـــرنُهُ هابـــا

بينما رواه ثعلب في قواعد الشعر (نص٨٧) : المجد حلّته .. (بالحاء المهملة) ، وهي رواية ذكرها المحقق في هامشه ونسبها إلى البحتري في حماسته .

أقول : هذه الأمور التي ذكرتها جعلتني أقتنع بأن شارح الديوان ليس ثعلباً . وحاولت أن أجد في هذا الديوان أدلّة تزيل هذه الشبهة أو الشبهات وتميل بنسبته إلى ثعلب ، ولو على ضعف ، فلم أجد .

بقي أن نسأل : لمن هذا الشرح ؟ ..... سؤال أردت به أن أتمم ما بدأت به من شك في نسبته إلى ثعلب . صاحب هذا الشرح لا بد أن يكون قد عاش في زمن أبكر من ثعلب ، وأن يكون قد عاصر ابن الأعرابيّ وأبا عمرو الشيباني وأخذ عنهما ، وأن تكون له معرفة بهؤلاء الأعراب المذكورين في الشرح ... وجاء الجواب من شرح الديوان نفسه ، قلت لنفسي : أيمكن أن يكون الشارح أبا سعيد الضرير أحمد بن (أبي)خالد ؟ ..

وأبو سعيد هذا لغويّ بغداديّ ، لم تذكر له المصادر سنة ولادة ولا سنة وفاة . ترجم له الأزهريّ بإيجاز في مقدمة كتابه (تهذيب اللغة)[٥] ، كما ترجم له ياقوت في معجم الأدباء[٦] ترجمة مطوّلة . أمّا غيرهما من أصحاب التراجم كالقفطيّ[٧]

والصفديّ[٨] والسيوطيّ[٩] ، فكانوا عيالاً عليهما . قال الأزهري : (كان طاهربن عبدالله بن طاهر استقدمه من بغداد ، فأقام بنيسابور وأملى بها كتباً في معاني الشعر والنوادر ... وكان لقي ابن الأعرابي وأبا عمرو الشيباني ، وحفظ عن الأعراب نكتاً كثيرة ، وقدم عليه القتيبي (= ابن قتيبة) فأخذ عنه ...) . يفيدنا نص الأزهري عن أبي سعيد الضرير في كونه :

١ ـ (من بغداد) .

٢ ـ (استقدمه طاهر بن عبد الله إلى نيسابور) ، ويبدو أن صواب الاسم : عبدالله بن طاهر ، لا ابنه : طاهر بن عبدالله . ذلك أن الحادثة التي حدثت لأبي تمام مع أبي سعيد الضرير إنما كانت في عهد عبدالله بن طاهر[١٠] .

٣ ـ (لقي ابن الأعرابي وأبا عمرو الشيباني) .

٤ ـ (حفظ عن الأعراب نكتاً كثيرة) .

والأمر الثالث في نصّ الأزهريّ ـ وهو أن أبا سعيد لقي ابن الأعرابي وأبا عمرو الشيباني ـ هو أول خيط يربطه بشارح ديوان الخنساء .

أما (حفظه عن الأعراب نكتاً كثيرة) ، فهو أن عبدالله بن طاهر استقدم معه إلى خراسان بعض العلماء وأعراباً ، أفاد منهم في مجالسه وخزانة كتبه . يقول ياقوت [١١] : (وكان أبو سعيد الضرير يلقى الأعراب الفصحاء الذين استوردهم ابن طاهر إلى نيسابور فيأخذ عنهم) . وسمّى منهم ياقوت[١٢] : عَرّاماً ، أحد الأعراب الذين أفاد منهم شارح ديوان الخنساء . أما الأعراب الآخرون المذكورون في الشرح ، وكانوا مجهولين لمحقق الديوان الفاضل ، وهم : زائدة وشجاع السلمي ومبتكر الثعلبي ، فكانوا معاصرين لعَرّام بن الإصبغ وأبي سعيد الضرير ، أي أنهم من أعراب منتصف القرن الثالث الهجري . وهذا بيان بأمرهم :

١ ـ زائدة ، سمّاه الأزهري : زائدة البكري ، ونقل من كتاب (الاعتقاب) لأبي تراب إسحاق بن الفرج ما يشير إلى معاصرته زائدة . قال الأزهري[١٣] : (قال أبو تراب : سمعت زائدة البكري يقول ....) . وأبو تراب هذا له روايته عن أبي سعيد . يقول الأزهري[١٤] ، (فأما أبو تراب فإنه شاهد أبا سعيد الضرير سنين كثيرة ، وسمع منه كتباً جَمّة) . وعرّف القفطي[١٥] بأبي تراب فقال : (خراسانيّ .. أملى بهراة من كتاب الاعتقاب أجزاء ، ثم عاد إلى نيسابور وأملى بها باقي الكتاب) . نفهم مما تقدم أن زائدة الأعرابي كان معاصراً لأبي سعيد الضرير ومن أعراب نيسابور .

٢ ـ أما شجاع السلمي فنقل عنه سماعاً أبو تراب .قال الأزهري[١٦] (وقال أبو تراب: سمعت شجاعاً السلمي يقول ...) . وهو بهذا يكون معاصراً لزائدة البكري .

٣ ـ مبتكر الثعلبي ، وهذا الأعرابي ممن روى عنه أبو سعيد الضرير قال الأزهري[١٧] ، (وقال أبو سعيد : الزَّهَد : الزكاة ، بفتح الهاء ، حكاه عن مبتكر البدوي) ، كما نقل عنه أبو تراب[١٨] .

أخلص من هذا كله الى أن أبا سعيد الضرير أفاد من الأعراب الواقفين بباب عبدالله بن طاهر . وهؤلاء الأعراب لم ينقل عنهم علماء اللغة في العراق ، البصريون منهم والكوفيون ، وانما عُرِفوا وشهروا في نيسابور بخراسان . وقد وجدت لهؤلاء الأعراب (عرّام وزائدة وشجاع ومبتكر وغيرهم) نقولاً وتعليقات على كتاب العين المطبوع ، وهذه الزيادات والتعليقات دخلت الكتاب وصارت جزءاً من نصه ، على الرغم من أن هؤلاء الأعراب لم يعاصروا الليث أو الخليل . وصار بعض الدارسين يظنون أن هؤلاء الأعراب ممن روى الخليل بن أحمد عنهم ، وأنهم من أعراب القرن الثاني الهجري وهو ظن لا صحة له كما رأينا.

وإذا عدنا إلى شرح ديوان الخنساء ، فإننا نجد ذكراً لأبي سعيد الضرير في الصفحة الثالثة من نص الديوان (= ص ٥٩) ، يُذكر بكنيته ولقبه . ثم ذكر بعد ذلك مرات كثيرة بكنيته فقط (أبي سعيد) ولكن المحقق كان يشير إليها في هوامشه على أنه الأصمعي ، مع أن الأصمعي يذكر في الكتاب بلقبه فقط (الأصمعي) ، ويذكر الضرير بكنيته : أبي سعيد . وإلا كيف يمكن تفسير ذكر الأصمعي مرتين في صفحة واحدة (ص ١٣٦) ، مرة بلقبه وأخرى بكنيته .

ذِكْرُ أبي سعيد الضرير مرات عديدة في شرح الديوان ، ونَقْلُه عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ، ومعرفته لأعراب نيسابور ، تجعل الدارس يقف وقفة تأمل وتفكر ... قد لا يكون شرح الديوان لأبي سعيد ، ولكني مطمئن إلى أنه لمؤلف عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري في بلاد فارس أو ممن تردد عليها .

ليست هذه الكلمة الأخيرة في هذا الديوان وشارحه ، فللدارسين والباحثين في أدبنا العربي كلمتهم ورأيهم في ما طرح ، والله من وراء القصد .

هوامـــش البحـــث :

١ ـ انظر حول شيوخ ثعلب : كتاب (أبو العباس ثعلب وجهوده في النحو) للسيد جمهور كريم الخماس ، ص ٦١ ـ ٧٣ ، رسالة ماجستير لم تطبع (جامعة البصرة) ، ومقدمة الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب (مجالس ثعلب) .

٢ ـ ولد ابن الأعرابي سنة ١٥٠هـ (انظر الفهرست لابن النديم ـ طبعة إيران ـ ص ٧٦ ، ومقدمة د.رمضان عبد التواب لكتاب البئر لابن الأعرابي ، ص ٨ ـ ٩) ، وتوفي أبو عمرو بن العلاء سنة ١٥٤هـ ، كما مرّ .

٣ ـ إنباه الرواة ١/١٥٠ .

٤ ـ تاريخ بغداد ٥/٢٠٥ .

٥ ـ تهذيب اللغة ١/٢٤ .

٦ ـ معجم الأدباء ٣/١٥ـ٢٥ .

٧ ـ إنباه الرواة ١/٤١ .

٨ ـ في كتابيه : الوافي بالوفيات ٦/٣٦٩ ونكت الهيمان ٩٦ـ٩٨ .

٩ ـ بغية الوعاة ١/٣٠٥ .

١٠ـ انظر : ديوان أبي تمام (شرح الخطيب التبريزي) ١/٢١٧ وأخبار أبي تمام للصولي ٧٢ .

١١ـ معجم الأدباء ٣/١٦ .

١٢ـ المصدر نفسه ٢/٢٧ .

١٣ـ تهذيب اللغة ٢/٣٢١ .

١٤ـ المصدر نفسه ١/٣٤ .

١٥ـ إنباه الرواة ٤/٩٦ ـ ٩٧ .

١٦ـ تهذيب اللغة ١/٣١٥ .

١٧ـ المصدر نفسه ٦/١٤٦ .

١٨ـ المصدر نفسه ١/١٣٩ و ١٤٩ و ٢٣٢ .